

السؤال النهضوي ووجوب نقده لدى الجابري

أ.عبيدي سعاد

قسم علم الاجتماع والديموغرافيا

جامعة الجزائر 2

ملخص الدراسة:

ينطلق مُجدّ عابد الجابري من وضعية نعتبرها هي حجر الزاوية في مشروعه النقدي والتي بدأت أساسا من خلال نقد الخطاب العربي المعاصر وتحليل طبيعة السؤال النهضوي، الذي كان سؤالا لا يحلل ظاهرة متجلية في الواقع العيني يتم رصدها وتتبعها، بل كان سؤالا حول عوامل تحقيقها.

هناك خاصية أولى ميزت الفكر العربي منذ مائة عام، وهي فشل هذا الخطاب في تحقيق هدفه، أي النهضة، إن الخطاب العربي المعاصر هو، في جميع أصنافه، خطابا من أجل النهضة، ولكنه مع ذلك خطابا قد فشل في أن يقدم للنهضة المنشودة النظرية التي يمكن أن تسترشد بها...

مقدمة:

ينطلق مُجدّ عابد الجابري من وضعية نعتبرها هي حجر الزاوية في مشروعه النقدي والتي بدأت أساسا من خلال نقد الخطاب العربي المعاصر وتحليل طبيعة السؤال النهضوي فيقول: "السؤال النهضوي سؤال إيديولوجي مشرع، إنه ليس سؤال ينشد التغيير ويشرع له في إطار حلم إيديولوجي، وبالتالي فهو لا يطرحه إلا إذا كان التغيير قد شق طريقه، أو أخذ يشق طريقه، بفعل الصراعات الاجتماعية والتاريخية، الأمر الذي يجعل الحلم بالتغيير حلما أيديولوجيا فعلا: يعكس اتجاه التطور ويستعجل نتائجه، يبشر بها وكأنها متحققة أو على وشك التحقق. ومن هنا كان الوعي بالنهضة يأتي عادة عقب انطلاقها، وعلى الأقل مساوقا لخطواتها الأولى الحاسمة، ومن هنا أيضا يأتي السؤال النهضوي كشكل من أشكال التعبير عن هذا الوعي: يعكسه وفي الوقت ذاته ينظر للنهضة ويرسم الطريق الذي يجب أن تسير فيه، الأمر الذي يجعل منه سؤالا-جوابا، بمعنى أن الرغبة في الإدلاء بالجواب هي التي تدفع إلى طرح السؤال"¹. لهذا فقد كان سؤالا لا يحل ظاهرة متجلية في الواقع العيني يتم رصدها وتتبعها، بل كان سؤالا حول عوامل تحقيقها.

يصرح الجابري أن الفكر العربي لم يكن خال من تفكير علمي أو عبارة أخرى كانت له الريادة في تأسيس العقل العلمي، إلا أن هذا لم يسمح بتأسيس ثقافة علمية على اعتبار أن الحضارة العربية الإسلامية كانت من بين الحضارات الثلاثة التي يذكرها الجابري المتمثلة في الحضارة اليونانية والحضارة الأوروبية التي "أنتجت ليس فقط العلم، بل أيضا نظريات في العلم، إنحادها ... التي مارست ليس فقط التفكير بالعقل بل أيضا التفكير في العقل"².

فعندما يصرح إن الحضارة العربية الإسلامية رغم أنها أنتجت نظريات في العلم، هذا لا يعني أنها أسست ثقافة علمية بالمعنى الحديث، أي أنها لم تجعل العلم كإطار معرفي يدخل ضمن الديناميكية المعرفية لهذا الفكر، بل بات على هامش الانشغالات أو الطروحات الفكرية والجدال الإيديولوجي، عكس ما حدث في الحضارة الغربية. ويرجع الجابري سبب تميز الفكر العربي عن الفكر الغربي في منطلقاته ومبادئه والأسس المعرفية التي اعتمدها، إلى طبيعة الموضوع الذي تفاعل معه كل منهما -الفكر العربي والفكر الغربي- ف"الموضوع الذي تعاملت معه الفعالية الذهنية

¹. مُجدّ عابد الجابري، إشكالات الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1989، ص20.

². مُجدّ عابد الجابري، تكوين العقل العربي، الطبعة الخامسة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1991، ص18.

لمفكري الإسلام موضوع ذو خصائص مميزة تختلف عن خصائص الموضوع الذي تعاملت معه الفعالية الذهنية لمفكري اليونان وفلاسفة أوروبا، وبالتالي القواعد التي استخلصتها الفعالية الفكرية العاملة داخل الثقافة العربية الإسلامية ستكون مختلفة عن القواعد التي شكلت جوهر العقل اليوناني والعقل الأوروبي¹. ونحن عندما نفرق انطلاقاً من الطرح الجابري بين الفكر الأوروبي والفكر العربي، لا يعني أننا نبرز أن موضوع تفكير كل منهما مختلف عن الآخر، بل يعني أن ما يفرق بين الفكرين أساساً هو الانشغال الفكري الذي يتحدد انطلاقاً من تعامل كل واحد منهما مع موضوعه والأولوية التي قد يوليها بجانب على الآخر وكيف يتحدد هذا الفكر انطلاقاً من نظرة خاصة للوجود والمعنى الذي يعطيه للإنسان من خلال إبراز خصائصه ومبرر وجوده في هذا الوجود.

فعندما نقول إن الفكر الغربي هو مادي، فهذا لا يعني أنه يهمل الجوانب الأخرى مثل المواضيع الدينية والميتافيزيقية، وإنما نعني أن هذا التفكير يتمحور أساساً ويتحدد بكيّته، بالجانب المادي وينطلق منه. وكذلك الحال عندما نقول إن المفكر في الحضارة العربية الإسلامية بالأساس يقع أساساً على المواضيع الدينية واللاهوتية والدراسات النقلية، هذا لا يعني أنه أهمل الجانب المادي وإنما القصد من ذلك أن الأسس المعرفية التي يقوم عليها هذا الفكر هي بالأساس قائمة على مسلمات دينية ميتافيزيقية وكل المعرفة تصب وتنتقل في هذا الإطار.

وهذا لا يقصد به كذلك أننا نعت هذا الفكر أو الآخر بالإيجاب أو السلب وإنما هذا يعود إلى خصائص ومميزات كل واحد منهما. قبل أن نحلل الطرح الذي جاء به الجابري في تناوله الفكر العربي المعاصر نقوم أولاً بمحاولة ربط طروحاته التي جاء بها في كتابه بعنوان **تكوين العقل العربي** وما طرحه في كتابه **الخطاب العربي المعاصر** وهذا لكي نجد الخيط الرابط بين المجال التاريخي الذي تكون من خلاله هذا الفكر، منذ نشأته في العصور الأولى والوضعية التي آل إليها لاحقاً، من خلال عصر النهضة. فهل يمكن من خلال هذا أن نجد العناصر التحليلية التي يمكن أن تقدم لنا الإجابة عن الأسئلة التي طرحناها سابقاً والتي مفادها أن الفكر العربي المعاصر هو فكر لا واقعي ولا يساهم في نشأة أو تهيئة الظروف المعرفية لتفكير علمي؟ هذا ما سنحاول

¹. نفس المرجع، ص 26.

الإجابة عنه من خلال تحليل مشروع الجابري، الذي قام به لنقد العقل العربي، ذلك عن طريق تعريف ما عرفه وتحديد ما حدده الجابري من مفاهيم لتفكيك هذا الفكر والكشف عن الأسس المعرفية التي تعطي لهذا الأخير مجال اهتماماته، والأنظمة الفكرية التي أنتجها من خلال الانشغال الأساسي الذي كان يدور حوله.

وقبل أن نقوم بذلك يجب أن نقوم بتحديد المنطلقات الايستمولوجية التي تبناها. ماذا يقصد الجابري بالعقل العربي؟ وعلى أي أساس يمكن أن يقوم العقل بنقد نفسه بنفسه؟

يفرق الجابري بين نوعين من الفكر، فهناك الفكر كمحتوى وهناك الفكر كأداة. الفكر كمحتوى يعبر به عن مضمونه أي جملة الأفكار والآراء والتصورات، أما الفكر كأداة فهو الفكر كأداة لإنتاج تلك الأفكار والتصورات وهذه التفرقة التي يتبناها الجابري بين الفكر كمحتوى والفكر كأداة، يقصد من خلالها، أنه يتبنى في جوهر بحثه ليس نقد الفكر كمحتوى أي لا يتبنى العملية التي تقوم بالتأريخ للأفكار والتصورات والآراء وتبويبها وتصنيفها ولكن ما يهمله بالأساس، في معرض نقده، هو الفكر العربي كأداة لإنتاج الأفكار. وهذا ما يدفع الجابري إلى طرح مفهوم العقل العربي بوصفه أداة لإنتاج الأفكار وهنا يقوم بمقارنة الفكر كمحتوى والفكر كأداة.

"إن التداخل الصميمي بين الفكر كأداة والفكر كمحتوى واقعة لا جدال فيها، وإذا أخذنا بعين الاعتبار واقعة أخرى لا جدال فيها كذلك وهي أن الفكر سواء بوصفه أداة للتفكير أو بوصفه الإنتاج الفكري ذاته هو نتيجة الاحتكاك مع المحيط الذي يتعامل معه، المحيط الاجتماعي الثقافي خاصة، سهل علينا أن نتبين مدى أهمية هذا المحيط في تشكيل الفكر كأداة " ومحتوى معا ، وبالتالي خصوصية المحيط الاجتماعي الثقافي في تكوين خصوصية الفكر، وهكذا فالفكر العربي مثلا هو عربي ليس فقط بكونه تصورات وآراء ونظريات تعكس الواقع العربي أو تعبر عن شكل من أشكال التعبير ، بل أيضا لأنه نتيجة طريقة أو أسلوب في التفكير ساهمت في تشكيلها جملة معطيات منها الواقع العربي نفسه بكل مظاهر الخصوصية فيه"¹ إن الإقرار بهذا يعني ، أن العقل

¹ - نفس المرجع ، ص 12.

الذي ينوي الجابري نقده هو بالأساس عقل عربي كونه نتيجة لظروف ومحيط ثقافي ساهم في تكوينه المتمثل في الواقع العربي .

إن أهمية البعد الثقافي تكتسي بعدا إبستمولوجيا ومعرفيا ، إذ أن العقل العربي ، هو كذلك لأنه يفكر بواسطة الثقافة التي أدت إلى نشأته وهذا ما يجعله يتحدد بمهوية ثقافته وهي الثقافة العربية ، "إن التفكير بواسطة ثقافة ما، معناه التفكير من خلال منظومة مرجعية تتشكل إحدائياتها الأساسية من محددات هذه الثقافة ومكوناتها وفي مقدمتها الموروث الثقافي والمحيط الاجتماعي والنظرة إلى المستقبل بل والنظرة إلى العالم ، إلى الكون، كما تحدها مكونات تلك الثقافة"¹ يأتي هنا الجابري إلى تعريف مهم يعبر عن جوهر موضوع دراسته ونقده ، حيث يصرح أن ما يقصد بالفكر العربي وما يخلص به قوله في هذا الإطار "الفكر بوصفه أداة للإنتاج النظري صنعتها ثقافة معينة لها خصوصية هي الثقافة العربية بالذات، الثقافة التي تحمل معها تاريخ العرب الحضاري العام، وتعكس واقعهم أو تعبر عنه وعن طموحاتهم المستقبلية ، كما تحمل وتعكس وتعبر في ذات الوقت عن عوائق تقدمهم وأسباب تخلفهم الراهن"².

هذا ما يقترحه الجابري ، ومن وجهة نظر خاصة ، تجعله يحدد الإطار العام الذي يتحدد به الفكر العربي.

إلا أنه بعد ما حدد لنا الفرق بين الفكر كمحتوى والفكر كأداة رجع إلى تفريق مهم جدا، وهو جوهر الإشكال النقدي الذي تبناه، إذ أنه دون التفريق بين الفكر السائد والفكر الفاعل لا يمكن أن نبرز العمل النقدي المرجو الذي تبناه الجابري ، إذ كيف يمكن للفكر أن ينتقد نفسه؟ هنا يأتي الجابري لكي يطرح مفهومين استخلصهما من العالم الفرنسي لالاند *lalande* حيث يفرق بين العقل المكون أو الفاعل و العقل المكون أو السائد. فالعقل الفاعل أو المكون هو "إدراك النشاط الذهني الذي يقوم به الفكر حين البعث والدراسة و الذي يصوغ المفاهيم و يقرر المبادئ".

أما العقل السائد أو المكون هو "مجموع المبادئ و القواعد التي نعتمدها في استدلالنا". فالعملية التي قام بها الجابري معتمدا على المفكر لالاند في التفريق بين طبيعتين للفعل المعرفي

¹ - نفس المرجع، ص 12.

² - نفس المرجع ، ص 14.

للفكر، تنطلق بالأساس من مهمة الناقد الايستيمولوجي، حيث أنه لا يمكن أن يتم نقد الفكر السائد إلا إذا تم هناك وجود العقل الفاعل الذي يقوم بتتبع الفكر السائد باستمرار.

وهنا يأتي انطلاقاً من هذا الطرح، إلى تعريف العقل العربي على أنه العقل المكون أي "جملة المبادئ و القواعد التي تقدمها الثقافة العربية للمنتمين إليها كأساس لاكتساب المعرفة أو.....تعرضها عليهم كنظام معرفي"¹ فالعقل الفاعل يدخل كعقل نقدي يصوغ العقل السائد و بالتالي إمكانية بنائه و صياغته وفق قواعد و مبادئ معرفية جديدة لتحل محل القديمة. و هنا يبرز لنا مفهوم العمل النقدي أي إمكانية استبدال نظام معرفي بنظام آخر.

إذن، ماذا يقصد الجابري بالنظام المعرفي و الذي سوف يكون المفهوم المعلم الذي بواسطته يمكن أن يحدد طبيعة الفكر العربي أو العقل العربي.

يعرف الجابري النظام المعرفي على أنه "جملة من المفاهيم و المبادئ والإجراءات التي تعطي للمعرفة في فترة تاريخية ما بنيتها اللاشعورية."²

هذا التعريف يبرز لنا البعد السيكلوجي في تكوين العقل أو النظام المعرفي المؤسس لهذا الأخير.

فعلى اعتبار أن إنتاج المعرفة هو عملية تدخل ضمن العمل الواعي في إنتاج المعارف و الأفكار فالنظام المعرفي هو، ما هو كامن وراء هذه الأفكار و المعتقدات و التطورات، أي البعد اللاشعوري في إعادة إنتاج هذا الفكر ذاته. و بالتالي استمرارية الثقافة التي ينشأ من خلالها. "فبنية العقل الذي ينتمي إلى ثقافة معينة تتشكل لا شعوريا، داخل هذه الثقافة ومن خلالها، وتعمل بدورها بكيفية لا شعوريا كذلك على إعادة إنتاج هذه الثقافة نفسها... إن العقل كجهاز معرفي (فاعل و سائد) يتشكل و ينتج في آن واحد بكيفية لا شعورية."³ إن اللاشعور المعرفي حسب الجابري لا يتحدد بالزمن أو المكان، فوجود الشيء بطريقة لا شعورية يعني أنه يحدد لنفسه المكان و الزمان الذي ينتمي إليه، ويتأسس من خلاله، يعني أنه لا يعطي أهمية لما قبل و لما بعد، بل الذي يحددهما في بنيته. فالزمن لا شعوري لا تحدده التواريخ ولا الأماكن ، فهو موجود في كل الأزمنة و من خلالها. فاعتبار الزمن الطبيعي على أنه زمن اليقظة و الوعي فإن اللاوعي واللاشعور، هو زمن

¹ - نفس المرجع، ص.15.

² - نفس المرجع، ص 37.

³ - نفس المرجع، ص.40.

يتحدد في عملية لا واعية لأفكار و معارف تحدد صمنه و تعتبره مرجعيتها المعرفية و الزمانية. إن الإقرار بهذه النتيجة هو تعبير عن مفهوم هو الأساس المرجع الأساسي الذي تكون من خلاله الفكر العربي ألا و هو عصر التدوين. إلا أنه قبل أن نحدد الإطار الزمني الذي يتحدد فيه التدوين وخصائصه الأساسية باعتباره الإطار المرجعي للفكر العربي ومن خلاله تكون النظام المعرفي، يعلن الجابري عن خصائص الفكر العربي و الذي اتسم بها منذ نشأته إلى يومنا هذا، مروراً بعصر النهضة. هذه الحقيقة التي يعلن عنها الجابري يعبر عنها بالحقيقة العربية المزدوجة، "هناك من جهة تداخل بين العصور الثقافية في الفكر العربي منذ الجاهلية إلى اليوم، مما يجعل منها زمناً ثقافياً واحداً، يعيشه المثقف العربي في أي مكان من الوطن العربي. كزمن راكد يشكل جزءاً أساسياً و جوهرياً من هويته الثقافية و شخصيته الحضارية و السمة البارزة في هذا الزمن الثقافي العربي الواحد، وهي حضور القديم، لا في جوف الجديد يغنيه ويوصله، بل حضوره معه جنباً إلى جنب ينافسه ويكبله. هناك من جهة أخرى انفصال بين الزمان و المكان في التاريخ الثقافي العربي انفصالاً جعل بعض البلاد العربية تعيش بعداً على صعيد الفكر و الثقافة و الوعي ما عاشه بعضها الآخر من قبل، الشيء الذي يعين غياب التزامن الثقافي على صعيد الوطن العربي، أو على الأقل عدم تحقيقه كاملاً في أية فترة من فترات التاريخ العربي إلى اليوم"¹ هذه الحقيقة المزدوجة المتناقضة التي تطبع الفكر العربي تجعله فكراً اجترارياً لا يتحرك بطريقة ديناميكية تطويرية ولكن بطريقة توترية اهتزازية، يعني أنه يتحرك في ذاته و من ذاته و لا يتحرك بذاته، لكي يعيد إنتاج نفسه انطلاقاً مما يستهلك. إذ لا يحقق تطوراً كرونولوجياً يجعل نفسه ينتقل من قبل إلى ما بعد، بل هو عبارة عن نظام معرفي ينتج مفاهيم وأطر معرفية تبقى حاضرة و موجودة بشكل مستقل عن الأطر المعرفية اللاحقة و بالتالي لا تحصل أية قطيعة معرفية في نظام بنظام معرفي آخر، بل هناك عملية تراكم كمي لنظم معرفية تنضاف إلى النظم القديمة دون إحداث النقلة أو الطفرة المعرفية. فتبقى النظم تتنافس الشرعية لتمثل هذا الفكر. ويحدد الجابري العصر الذي تمت من خلاله بلورة هذه النظم الفكرية أو المعرفية و التي اعتبرها نظم مستقلة عن بعضها البعض، حيث يعتبره الإطار المرجعي الذي أرسيت فيه المبادئ الاستيمولوجية التي شكلت وتشكلت و ستتشكل على أساسها كل النظم المعرفية اللاحقة.

¹ . نفس المرجع، ص. 51.

يعرف الجابري هذا العصر على أنه "الإطار المرجعي الذي يشد إليه ويخيوط من حديد جميع فروع هذه الثقافة وينظم تموجاتها اللاحقة... إلى يومنا هذا، ليس هذا فحسب، بل إن عصر التدوين هذا... هو في ذات الوقت الإطار المرجعي الذي يتحدد به ما قبله... وليس العقل العربي في الواقع الأمر شيء آخر غير هذه الخيوط بالذات، التي امتدت إلى ما قبل وصنعت صورته في الوعي العربي.... وامتدت و تمتد إلى ما بعد لتصنيع الواقع الفكري الثقافي العام في الثقافة العربية العامة و بالتالي مظهر أساسيا من مظاهرها.¹ ويصطلح الجابري هذا العصر بعصر التدوين، وهو الفترة الزمنية التي تمتد ما بين منتصف القرن الثاني للهجرة و منتصف القرن الثالث، فقد كانت عملية التدوين في هذه الفترة كحركة أسست للعقل العربي نظامه المعرفي و أرست دعائمه الايستيمولوجية وهي التي أسست المنطلقات المعرفية التي يرجع إليها أي إنتاج ثقافي معرفي. و بالتالي فإن الظروف التي صاحبت عصر التدوين هي التي ستطبع خصائصه وتعطي للعقل العربي هويتهالثقافية فإن المعطيات والصراعات والتناقضات التي عرفها عصر التدوين والتي تشكل هويته التاريخية هي المسؤولة عن تعدد الحقول الإيديولوجية و النظم المعرفية و الثقافة العربية كما و أنها هي المسؤولة عن تعدد المقولات وصراعها في العقل العربي"² هذا ما يخلص إليه الجابري في عرضه لأهم المفاهيم التي تكون كأدوات تحليل الفكر العربي و من ثمة نقده.

يحدد لنا الجابري النظم المعرفية في الثقافة العربية الإسلامية حيث تبلورت وأخذت تتشكل بنية العقل العربي انطلاقا من نظم معرفية ثلاثة وهذا التصنيف الذي جاء به الجابري يحاول من خلاله القيام بقطيعة مع التصنيفات التقليدية السائدة و التي لم تخرج عن الطرح الشكلي و هنا يقول مبررا ما قام به "...بدلا من تصنيف العلوم و ضروب المعرفة للثقافة العربية إلى علوم نقلية و أخرى عقلية إلى علوم الدين و علوم لغة أو إلى علوم العرب و علوم العجم، وهي التصنيفات التي مازالت سائدة ومهيمنة، وبدلا من اعتبار الفقه والنحو و البلاغة مثلا علوما منفصلة بعضها عن بعض و مستقلة بموضوعاتها ومناهجها واعتبار

علم الكلام و الفلسفة علمين متجاورين متكاملين، وبدلا كذلك من تصنيف التصوف مع العلوم الدينية و الكيمياء مع العلوم العقلية إلى جانب الرياضيات و الطبيعيات... بدلا من هذه

¹ - نفس المرجع، ص 62.

² . نفس المرجع، ص 71.

التصنيفات التي لا تقوم إلا على اعتبار المظاهر الخارجية وحدها و التي تذكرنا بالتصنيف القديم بالحيوانات حسب مظاهرها الخارجية، إلى حيوانات برية و مائية و برمائية، أدى بنا رصد الأساس الايستيمولوجي لإنتاج المعرفة داخل الثقافة العربية إلى تصنيف آخر، لا يؤخذ فيه الاعتبار سوى البنية الداخلية للمعرفة و العمق . فيما يبدو لنا يمثل الآفاق التي فتحها أمام علم البيولوجيا التصنيف الحديث للحيوانات إلى فقريات و لا فقريات... هكذا أمكن تصنيف العلوم و جميع أنواع المعارف في الثقافة العربية الإسلامية إلى ثلاث مجموعات: علوم البيان من نحو وفقه وكلام و بلاغة و يؤسسها نظام معرفي واحد يعتمد قياس الغائب على الشاهد كمنهاج في إنتاج المعرفة و ما أسميناها بـ "المعقول الديني العربي" لا مقيد بالمجال التداولي الأصلي للغة العربية، كروية واستشراق و علوم العرفان من تصوف وفكر شعبي وفلسفة إسماعيلية و تفسير باطني للقرآن، وفلسفة استشرافية وكيمياء و تطبيب وفلاحة نجومية و سحر و طلاس و علم تنجيم... الخ و يؤسسها نظام معرفي يقوم على "الكشف و الوصال" و "التجاذب و التدافع" كمنهاج و على ما أسميناها بـ "اللامعقول العقلي" أعني الذي ينسب إلى العقل لا إلا الدين، والذي كرسته الهرسية . كروية و استشراق و أخيرا علوم البرهان من منطق و رياضات و طبيعيات (بفروعها المختلفة) و إلهيات، بل ميتافيزيقا، و يؤسسها نظام معرفي واحد يقوم على الملاحظة التجريبية والاستنتاج العقلي كمنهاج، وعلى ما دعواناه بـ " المعقول العقلي" أعني المعرفة العقلية المؤسسة على مقدمات عقلية . كروية و استشراق" ...¹.

بعد هذا العرض الذي قدمه الجابري مبررا من خلاله المنحى الذي اتخذته لتصنيف الفكر العربي، ينطلق من هذه التصنيفات على اعتبار أن هذا الفكر لم يستطع إلى حد الآن تجاوز هذه النظم المعرفية و ما زال هذا الفكر يعيد إنتاج نفسه بنفسه الطريقة التي أدت به إلى إنتاج هذه النظم الثلاثة ، فهو يتأرجح من نظام إلى آخر دون أن يحدث هذا ضمن حركة ديناميكية تطويرية تراكمية، لذا فإن الحركة داخل هذه الثقافة هي حركة اعتماد واهتزاز حركة اصطدام و تداخل بين النظم المعرفية الثلاثة المؤسسة لها، وليست حركة "نقلة" أي حركة يتم الانتقال بها من مرحلة إلى أخرى و يتجاوز بفضلها اللاحق السابق: ينفيه و يبعثه بعد أن يحتفظ منه بما يقبل الحياة و التجدد"²

¹ - محمد عابد الجابري ، تكوين العقل العربي ، مرجع سبق ذكره ص 333-334

² - نفس المرجع السابق ، ص 334.

تؤدي هذه الوضعية إلى نتيجة واحدة وهي أن الفكر العربي منذ عصر التدوين أسس لنفسه معالم معرفية وأطر تسمح له بإعادة إنتاجه، وبالتالي أصبح هذا العصر هو المؤسس والملهم الوحيد للفكر العربي اللاحق، وهذه الخاصة الأساسية يعرفها الجابري بحالة الإجتاز إن العقل العربي حسب الجابري تحكمه هذه الأنظمة الثلاثة في تفاعل وتجاوب مع مستلزمات التاريخ... لكن هذه الأنظمة رسمت لهذا العقل حدوده فأصبح يفكر بواسطتها وداخلها، وتحول الزمن إلى تقليد وتكرار، إنه لم يعرف، لا القطائع ولا الحرائق، لقد ظل هو هو مشدود إلى آلية العرفان والكشف وآلية البرهان المحاصرة.¹ إلا أن النظم المعرفية التي وصل إليها، لا نجد ضمنها النظام المعرفي الذي هو بالأساس ملهم التقدم الفكري، ألا وهو العلم، على اعتبار أن العلم ومنذ عصر النهضة الأوروبية كان وما يزال هو ملهم التقدم الفكري، وهنا طرح الجابري سؤال مهم جدا "أين كان يقع العلم العربي من حركة الثقافة وتموجاتها؟ وبالتالي من تطور العقل الذي ينتمي إلى هذه الثقافة : العقل العربي"² هذا التساؤل طرح إشكالا أساسيا مفاده، مكانة التفكير العلمي ضمن الأطر المعرفية المؤسسة للفكر العربي وهذا الطرح يحتم علينا معرفة طبيعة النظم المعرفية الثلاثة وأسسها الإبستمولوجية، يقسم الجابري كما سلف الذكر النظام المعرفي المؤسس للعقل العربي إلى ثلاثة نظم وهي البيان، العرفان، البرهان.

البيان : كفعل معرفي هو الظهور والإظهار والفهم والإفهام وكحقل معرفي هو عالم المعرفة الذي تبنيه العلوم العربية الإسلامية "الخالصة" علوم اللغة، علوم الدين وتتركز الممارسة النظرية داخله على وضع قوانين لتفسير الخطاب المبين الخطاب القرآني أساسا واقتراح مقدمات عقلية لتأسيس مضمون ذلك الخطاب مضمونه الديني خاصة، تأسيسا عقليا جدليا حججيا والبيان كنظام معرفي هو جملة من المبادئ والمفاهيم والإجراءات التي تعطي لعالم المعرفة ذات بنية لا شعورية : أعني المحددات والسلطات التي تحكم وتوجه المتلقي للمعرفة والمنتج لها، داخل الحقل المعرفي البياني، دون أن يشعر بها، دون أن يختارها³

¹ - كمال عبد اللطيف، في الفلسفة العربية المعاصرة، مرجع سبق ذكره. 111.

² - محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، مرجع سبق ذكره ص 338.

³ - محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي : دراسة تحليلية نقدية للنظم المعرفية في الثقافة العربية، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت 1986، 556.

العرفان : كفعل معرني هو ما يسميه أصحابه بـ الكشف أو العيان وكحقل معرني هو عبارة عن خليط من هواجس وعقائد وأساطير تتلون بلون الدين الذي يقوم على هامشه لتقدم له ما يعتقداه العرفانيون أنه الحقيقة الكامنة وراء ظاهر نصوصه وبما أن الإسلام عقيدة وشريعة يحددهما نص أساسي هو القرآن، وبما أن هذا النص قد جاء بلسان عربي مبين وبما أن الشريعة الإسلامية عبادات ومعاملات يرتبط فيها الديني بالإجتماعي والسياسي في أكثر من جانب ، فإن الحقل المعرفي العرفاني في الإسلام قد تأسس بالإرتباط بالنص أي باللغة وبالشريعة أي بالسياسة ومن كانت الممارسة النظرية داخلة توظف اللغة وتخدم السياسة...¹

البرهان: كفعل معرني فهو استدلال استنتاجي (مقدمات فتتأج تلزم عنها) وكحقل معرني هو عالم المعرفة الفلسفية العلمية المنحدر إلى الثقافة العربية عبر الترجمة ، ترجمة كتب أرسطو خاصة ، وبما أن هذا الحقل المعرفي قد نقل إلى الثقافة العربية من أجل مناصرة البيان الذي يؤسسها أصلا ، ضدا على العرفان الذي كان يغزوها من الداخل ، فلقد كان لا بد من العمل على ترتيب العلاقة بين البيان والبرهان على صعيد المنهج (النحو والمنطق) وكان لا بد من ترتيب العلاقة بينهما على صعيد الرؤية وكذلك (علم الكلام والفلسفة)².

إن هذه النظم الثلاثة التي تبلورت خلال عصر التدوين لم تكن خالية من الاحتكاك والاصطدام والتأثير والتأثر المتبادل فيما بينها وعملية التفاعل هذه كانت أساسا جزء من عملية التكوين ذاتها ، إلا أن هذا لم يدم طويلا إذ أن التفاعل الذي حصل في مرحلة التكوين انقلب إلى صراع لمحاولة الاستقلال بالعقل وتمثيله ، إلا أن مع مرور الزمن جاءت محاولات للمصالحة بين النظم المعرفية الثلاثة إلا أنها لم تؤد إلى إعادة تأسيس هذه النظم الثلاثة ولكن جاءت كعملية تلفيقية فطوال "مرحلة التداخل التلفيقي هذه ، التي مازالت آثارها قائمة إلى اليوم، ظلت نفس السلطات التي تحكم العقل العربي والفكر الإسلامي هي هي وكل الفرق بين المرحلتين مرحلة التداخل التكويني ومرحلة التداخل التلفيقي هو أن العقل العربي في المرحلة الأولى كانت تتجاذبه ثلاثة نظم معرفية يريد كل منها أن يستقل به، وكان الصراع بين هذه النظم يفسح المجال لهذا العقل لممارسة نوعا من الفعالية داخل كل حقل على حدة، أما في المرحلة التالية، فقد أزيلت

¹ - نفس المرجع، ص 557.

² - نفس المرجع، ص 557.

الحواجز وأصبح العقل العربي محكوماً بسلطات تلك النظم ولكن لا بوصفها نظاماً معرفية مستقلة بل بوصفها نظاماً مفككة تداخلت سلطاتها المعرفية وأصبحت تشكل ما يمكن أن يطلق عليه اسم البنية المحصلة ، وهي البنية التي تشكلت من تدخل الأزواج المعرفية التي كانت تقوم عليها تلك النظم¹

وبالتالي فإن هذا التداخل الذي حصل بين هذه النظم الثلاثة أدى إلى إنشاء بنية معرفية هجينة ملفقة سيطرت على العقل طوال العصور اللاحقة وإلى غاية اليوم وفقد على أساسها كل نظامه أسسه الايستمولوجية ومرجعياته المعرفية وتشكل من خلالها وضع ثقافي يتسم بالتيهان فاقد المعالم واضحة تسمح بالاستمرار الإيجابي والتفاعل المثمر في إطار الحقل الاجتماعي العام، وبالتالي لم يحصل أن ظهر نظام آخر مستقل عن هذه النظم الثلاثة كون الصراع كان محدوداً في إطارها ولا يمكن أن تكون الغلبة إلا لواحد منها، أو بذويان كل واحد في الآخر ويؤدي إلى ما أدى إليه.

ولم يكن للعلم في إطار هذا العقل أية فعالية إذ لم يكن طرفاً في الصراع، "إن العالم العربي بهذا المعنى قد بقي من أول الأمر حتى نهايته خارج مسرح الصراع في الثقافة العربية، وبالتالي فهو لم يدخل في أية علاقة مع أي طرف من الأطراف المتصارعة فيها، لا مع الدين ولا مع الفلسفة، فقد بقي على هامش النظم الفكرية والإيديولوجية المتصارعة، وبالتالي لم تتح له الفرصة ليساهم في تكوين العقل العربي ككل"².

إن هذه النتيجة التي يخلص إليها الجابري تعتبر مهمة جداً، فيما يخص الإشكالية التي نحن بصدد تحليلها وهذا لكونه يطرح إشكالية الفكر العربي المعاصر كبنية كلية، يرتبط حاضره بماضيه، حيث أن الخصائص التي ظهر بها منذ عصر النهضة مرتبطة لاشعورياً ببنيتها التي تكونت خلال عصر التدوين، وبالتالي فإن إشكالية الفكر العربي المعاصر هي إشكالية الفكر العربي ككل وهذه النتيجة التي نخلص إليها يسوقنا بها الجابري لمحاولة الربط بين الخطاب العربي المعاصر وبنية العقل العربي التي تشكلت من خلال البنية المحصلة التي تبلورت من خلال تداخل النظم المعرفية الثلاثة بعد عصر التدوين.

¹ - نفس المرجع ، ص 558.

² - محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، مرجع سبق ذكره، ص 345.

لقد عالج الجابري الخطاب العربي المعاصر تبعا لتصنيف معين أدى به إلى التمييز بين أربعة أنواع أساسية من الخطاب: الخطاب النهضوي، الخطاب السياسي، الخطاب القومي، الخطاب الفلسفي. إلا أن ما يهمنا هنا ليس التمايز الموجود على مستوى هذه الأصناف، حيث ليس هناك استقلالاً تاماً بينها بل هناك قواسم مشتركة توحد هذه الأصناف، وتجعلها مميزات الخطاب العربي المعاصر ككل والتداخل بينها يبرز لنا حضور السلطة المعرفية التي تشكل من خلالها إطار البنية المحصلة، فكل هذه الأصناف تبحث عن بديل للواقع على أساس مفاهيم لا تعكس هذا الوضع نفسه.

وبالتالي فإن "مفاهيم الخطاب العربي الحديث والمعاصر لا تعكس الواقع العربي الراهن ولا تعبر عنه بل هي مستعارة في الأغلب الأعم إما من الفكر الأوروبي حيث تدل هناك في أوروبا على واقع تحقق أو في طريق التحقيق، وإما من الفكر العربي الإسلامي الوسطي، حيث كان لها مضمون واقعي خاص أو تعتقد أنها كانت كذلك بالفعل وفي كلتا الحالتين فهي توظف من أجل التعبير عن واقع مأمول غير محدد واقع معتم مستنسخ إما من هذه الصورة أو تلك الصور النموذجية القائمة في الوعي - الذاكرة العربية"¹.

إن هذا الوضع الإشكالي الذي يطرحه الجابري يلخصه الكاتب المغربي محمد وقيد في معرض مقاله حول الخطاب العربي المعاصر "خطوة إلى الأمام... أم خطوة إلى الوراء؟".

حيث يلخص المميزات العامة للخطاب العربي المعاصر، انطلاقاً من طرح الجابري كالاتي:
 "هناك خاصية أولى ميزت الفكر العربي منذ مائة عام، وهي فشل هذا الخطاب في تحقيق هدفه، أي النهضة، إن الخطاب العربي المعاصر هو، في جميع أصنافه، خطاباً من أجل النهضة، ولكنه مع ذلك خطاباً قد فشل في أن يقدم للنهضة المنشودة النظرية التي يمكن أن تسترشد بها...
 ... إن الخطاب العربي المعاصر قد فشل في أن يحقق أي نوع من التقدم، فهو خطاب ما فتئ منذ مائة سنة يكرر معالجة نفس القضايا، ويدور في فلك نفس المفاهيم، ويجوم بالرغم من الاختلافات الجزئية حول نفس الحلول..."

¹ - محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر: دراسة تحليلية نقدية، الطبعة الرابعة، بيروت، مارس، 1992، ص

...الخطاب العربي يحيا مع واقعه علاقة غير مباشرة بل وحسب تصريح الجابري هناك غيابا لهذه العلاقة، حيث يعيش الخطاب العربي المعاصر علاقته مع واقعه من خلال النظرية. الخاصية الرابعة التي تميز الخطاب العربي في نظر الجابري وهي أنه لا يعبر عن معطيات الواقع العربي الحقيقية القائمة آنفذ، بل كان يعبر عن واقع آخر كان يعيشه العرب على صعيد الحلم... يتميز الخطاب العربي المعاصر على الرغم من الاختلاف الجزئي القائم بين اتجاهاته بكونه خطابا سلفيا... (سواء كان هذا السلف يتمثل في ماضي الأنا أو حاضر الآخر). يتميز الخطاب العربي المعاصر يتناقض داخلي: التناقض ما بين طموحه النهضوي، وميوله اللاعقلانية... يتميز الخطاب العربي المعاصر، أخيرا، بالتناقض الموجود فيه بين المضامين الإيديولوجية والصياغات المعرفية، فالتكوين المعرفي الذي يعكسه... يتميز بضعفه ولكن هذا الضعف يتم إخفاؤه بمضامين إيديولوجية¹.

إن هذا الوضع الذي يطرحه الجابري في تحليله للخطاب العربي المعاصر ينعكس سلبا على مستوى إنتاج نسق معرفي علمي، فهذا الفكر لا يمنح إمكانية خطاب علمي يكون بالأساس تابعا وانعكاسا لهذا الواقع، على اعتبار أن هذا الأخير مغيب وغير معترف به كمرجع بل هو واقع مرفوض يبحث عن بديل له في مضامين فكرية وقوالب إيديولوجية غريبة عنه، فإما أن يؤدي بها من ماضي الأنا وإما من حاضر الآخر. وهي تمارس على هذا الواقع سلطة مرجعية لا يكون الواقع محققا إلا بها. ولعل النقطة الأساسية التي جعلت هذا الفكر غير مطابق لواقعه ولا يعبر عنه كبعد معرفي يعيد صياغة الواقع هو أن رواد النهضة "لم يدركوا أو لم يعوا أن سلاح النقد يجب أن يسبقه ويرافقه نقد السلاح، لقد أغفلوا نقد العقل، فراحوا يتصورون النهضة ويخططون لها ويناضلون من أجلها، إما بعقود أعدت للماضي... وإما بمفاهيم أنتجها حاضر غير حاضرهم - حاضر كان قد أصبح هو الآخر في موطنه ماضيا تم تجاوزه - مفاهيم لم تعرب ولم يبذل المجهود الكافي من أجل تبيئتها وتحيينها وجعلها من خلال تحليل الواقع، مطابقة أي معبرة عن هذا الواقع وقادرة بالتالي على امتداد العمل العربي بالجهاز النظري الضروري لتحقيق التغيير وبناء النهضة"². إن الوضع

¹ - مُجَّد وقيدي، "حول الخطاب العربي المعاصر: خطوة إلى الأمام أم خطوة إلى الوراء؟"، مرجع سبق ذكره، ص 32-36.

² - مُجَّد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، مرجع سبق ذكره، ص 200.

الذي آل إليه هذا الفكر على مستوى التيارات الفاعلة فيه، هو الحلم بواقع سياسي أو اجتماعي أو ثقافي لم يكن محققا في الواقع بل هو واقع يهدف الفكر إلى تحقيقه حيث يرفض هذا الواقع عينه، بمضامين فكرية ومفاهيم لا تعكس هذا الواقع كما عاصره رواد النهضة.

قائمة المراجع:

- ¹ . مُجَّد عابد الجابري، إشكالات الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1989، ص20.
- ² . مُجَّد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، الطبعة الخامسة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1991، ص18.
- ³ - مُجَّد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر: دراسة تحليلية نقدية، الطبعة الرابعة، بيروت، مارس، 1992، ص 198.
- ⁴ - مُجَّد وقيدى، "حول الخطاب العربي المعاصر: خطوة إلى الأمام أم خطوة إلى الوراء؟"، مرجع سبق ذكره، ص 32-36.